المحاضرة رقم (6):

ظاهرة المعارضة في الشعر الأندلسي

مقدمة:

كان الشعر العربي في المشرق بمثابة النبراس المستنير الذي يضيئ سماء الأندلس شعرا وفنا، وكانت حينها الأندلس مولعة بمحاكاة الثقافة الشعرية الشرقية، ومجاراتها في لغتها، وأسلوبها، وصورها، وجميع تشكيلاتها الفنية في صناعة الشعر والنثر على حد سواء.

ولمّا كانت الحاضرة الشرقية مركزا لصناعة الوعي الثقافي والفنّي، كان لزاما على الأندلسيين أن يحذوا حذوا هذا المركز الذين يرون فيه الوطن الأم الذي نزحوا منه، وهو ما نتحسسه في سائر المعارضات سواء أكانت في الحياة أو في الفن؛ فلا ريب أننا سنجد أسماء المدن، وألقاب الأعلام، والشعراء، والكتب، تتسمّى بأسماء مشرقيّة تيمنا بالمركز الذي تختلط فيه مشاعر الانتماء بمشاعر الحنين والتبجيل والتقديس.

أولا: مفهوم المعارضة / لغة واصطلاحا::

أ -المعارضة لغة:

المعارضة في لسان العرب تعني" "وعارض الشيء بالشيء معارضة : قابله، وعارضت كتابي بكتابي أي قابلته، وفلان يعارضني أي يباريني، وعارض في السير :سار حياله وحذاه، وعارضته بمثل ما صنع أي، أتيت إليه بمثل ما أتى وفعل

مثل ما فعل، ويقال عارض فلان فلان؛ إذ أخذ في الطريق، وأخذ في طريق آخر فالتقيا"[1]

"وعرض الشيء عرضا وعروضا، ظهر وأشرف، وفلانا باراه، وأتى بمثل ما أتى به هو فهو" يعارضه" و"تعارضا "؛ عارض أحدهما الآخر، و"المعارضة "في القضاء، طريقة الطعن في الغياب"[2]

ب-المعارضة اصطلاحا:

أما في الاصطلاح، فنجد تعاريف مختلفة لمصطلح المعارضة[3]، لا مجال هنا لبسطها أو الخوض فيها، ويكفينا ما قاله أحمد الشايب:" المعارضة في الشعر أن يقول شاعر قصيدة في موضوع ما من أي بحر وقافية، فيأتي شاعر آخر فيعجب بهذه القصيدة؛ لجانبها الفني، وصياغتها الممتازة، فيقول قصيدة من بحر الأولى وقافيتها، وفي موضوعها أو مع انحراف عنه يسير أو كثير، حريصاً على ما يتعلق بالأول في درجته الفنية أو يفوقه فيها دون أن يـعرِض لهجائه أو سبِّه، ودون أن يكون فخره علانية؛ فيأتي بمعان أو صور بإزاء الأولى تبلغها في الجمال الفني أو تسمو عليها بالعمق أو حسن التعليل، أو جمال التمثيل، أو فتح آفاق جديدة في باب المعارضة[4].

وبالنّظر إلى المعنيين اللغوي والاصطلاحي، يمكن أن نستشف مساحات الدلالة الواحدة التي تعني المحاكاة، و المشاكلة، والمقابلة، وهو ما تقتضيه المعارضة من وجود مثال يحتذى، وأنموذج يقتدى،؛ لأن الأصل في عملية الابداع، "لا يعني عملية الخلق من عدم،بل إنشاء شيء جديد انطلاقا من التعامل مع شيء، أو أشياء قديمة، قد يكون هذا التّعامل إعادة تأسيس أو تركيب،وقد يكون نفيا وتجاوزا، ومن

---

1 - ابن منظور: لسان العرب،مادة :عرض.

2- إبراهيم مصطفى وحامد عبد القادر : المعجم الوسيط، جمهورية مصر العربية، مجمع اللغة العربية، 494. ، 494، مكتبة الشروق الدولية، ص، 494 .

3 - يعد" ابن عبد ربه "أول شاعر أندلسي أطلق مصطلح المعارضة بمعناها الاصطلاحي، وأورد أنموذجا عليه، فهي واضحة عنده في عقده الفريد، حيث قال" ومما عارضت به" صريع الغواني"...ثم أورد الأبيات التي عارضه بها، ينظر: العقد الفريد لابن عبد ربه(أحمد بن محمد بن ربه بن سالم الأندلسي)، شرحه وضبطه وصححه وعنون موضوعاته :أحمد أمين أحمد الزين، إبراهيم الأبياري، دار الكتاب العربي، بيروت، د ط / 5924م، مج . ص493 ،499

4 - أحمد الشايب: تاريخ النقائض في الشعر القديم، مكتبة النهضة المصرية ، مصر، 1954، ص، 17.

هنا يمكن القول: إن الإبداع في الفن هو إنتاج نوع جديد بواسطة إعادة تركيب أصيلة للعناصر الموجودة"[5] سلفا، وهو ما يعبر عن رؤية قدسية للتراث الشعري الغائب، ومحاولة امتصاص التجربة السابقة، واجترارها قصد التهيؤ لبعث نص جديد يتشاكل بطريقة ما مع نص سابق.

ثانيا:تاريخ المعارضات

إننا لو قلّبنا صفحات تاريخ أدبنا العربي، لوجدنا أن للمعارضات جذورا ضاربة في عمق الشعر الجاهلي، "لكن لا يمكن عده معارضة إنما قد يكون البذرة الأولى، التي قد تكون الأمر في نتاج طاب على سوقه فيما تلاه من عصور"[6]متقدمة.

وربما كانت قصة أم جندب زوج امرئ القيس مع علقمة الفحل تمثل المرجع الأول لظهور فكرة المعارضة، وتعود أصل الحكاية إلى تنازع امرئ القيس مع علقمة الفحل في أيهما أشعر من الآخر ، فادعى كل واحد منهما أنه أحق برتبة الشعر من الآخر، حتى اتفقا على حكومة أم جندب، فقال علقمة: "قد رضيت بامرأتك أم جندب حكما بيني وبينك. فحكماها، فقالت أم جندب لهما: قولا شعرا تصفان فيه فرسيكما على قافية واحدة، وروي واحد، فقال امرؤ القيس:

خليلي مرا بي على أم جندب نقض لبانات الفؤاد المعذب

وقال علقمة:

ذهبت من الهجران في غير مذهب ولم يك حقا طول هذا التجنب"[7]

فقالت لامرئ القيس بعد أن سمعت منهما:علقمه أشعر منك قال :وكيف ذلك؟ قالت :لأنك أجهدت فرسك بسوطك وضربته بساقك، أما علقمه فقد أدرك طريدته،

---

5 - محمد عابد الجابري : أزمة الإبداع في الفكر العربي المعاصر (أزمة ثقافية..أم أزمة عقل) – فصول – المجلد الرابع – العدد الثالث،القاهرة، 1984- ص، 108.

6 - إيمان السيد أحمد الجمل :المعارضات في الشعر الأندلسي، جدارا للكتاب العالمي، عمان، 2006 ، ص، 71.

7 - المرزباني : الموشح، تح : علي محمد البجاوي، دار الفكر العربي، القاهرة(د ط) (د ت) ، ص، 35،36.

وهو ثان من عنان فرسه ولم يضربه بسوط ولا مراه بساق ولا زجزه، قال امرؤ القيس :ما هو بأشعر مني، ولكنك له وامقة، فطلقها، وخلفه عليها علقمه بن عبدة وسمي بذلك الفحل"[8]

إنّ ما يمكن أن نستشفه من هذه القصة هي هذه المقومات الفنية لقضية المعارضات الشعرية، ويتجلى ذلك في قول أم جندب: من خلال ما قالته أم جندب لزوجها ولعلقمه :قولا وشعرا تصفان فرسيكما على روي واحد، وقافية واحدة؛ فهذا يعني وجوب وحدة الموضوع والوزن والقافية وحركة حرف روي"[9]

هذا أنموذج للمرحلة الجنينية لفكرة المعارضات/المباراة، ومع ذل لا يمكن البتة " أن نطلق عليها تسمية المعارضات، إنما هي بدايات تطورت، وأخذت شكلا آخر فيما سمي بعد ذلك بالمعارضات"[10] الشعرية .

رابعا: هل المعارضة من مظاهر التقليد:

لا يمكن البتة أن نعد المعارضة تقليدا؛ وذلك لأن الشاعر لمجرد قوله قصيدة يعارض بها غيره في وزنها، وبحرها، وموضوعها، لا يعد مقلدا؛ لأنّ الأصل في التقليد أن يكون لأشباه الشعراء، وعديمي الشخصية الشعرية، أو لمن هم في طريق المراس والدربة، أمّا المعارضة فلا تكون إلا لمن بلغ شأوا في مضمار الشعر، والمعارض مبدع يلتزم بالشكل الشعري لقصيدة سابقة، وهو في الوقت آنه مجبر على إضافة تشكيلات جديدة في قصيدته؛ ما يعني أن الشاعر المعارض لا يكون كذلك إلا أذا استوت عنده ملكة الشعر، فيحاول مجاراة أعلام الشعراء ومضاهاتهم، وتنتهي هذه النـزعة وتستوي على ساقها حين يدرك مرتبة أولئك الشّعراء الذين بدأ معجباً بهم"[11]، وهو ما يجعلنا نقول مطمئنين أن المعارضة" حالة تتجاوز التقليد إلى الإبداع، والمتابعة إلى الابتكار، والشاعر يمزج فيها بين القديم

8 - .ابن قتيبة :الشعر والشعراء، حققه أحمد محمد شاكر، دار المعارف، القاهرة، 1966 ، ص، 107.
9 - إيمان السيد أحمد الجمل :المعارضات في الشعر الأندلسي، ، ص، 71 .72.
10 - المرجع نفسه، ص، 76

والجديد"[12]بطريقة ما اصطلح عليه جيرار جنيت بالتعليق النّصي أو التجاوز النّصي[13].

ثم إنه "ليس من السهل أن يقال أن الشركة في الموضوع تدل على تقليد أو محاكاة لأنّ مواد الحياة في طور حضاري ما، قد تكون متشابهة، وهي التي تضع الموضوع الشعري، ولكن حيث نجد التشابه في الشكل والطريقة وحيث تكثر المعارضة أو السرد وحين تشتغل الصورة تقسمها في الموضوع الواحد فحينئذ يمكننا القول بالتقليد والمحاكاة"[14]..

وجملة القول، ومما سبق ذكره، نستطيع القول إنّ:"المعارضة ليست تقليدا في جميع مراحلها، بل يكون التقليد مرحلة تنتهي بالتجديد والتفوق والإبداع "[15]، وهي طبيعة كل فن ينشأ صغيرا يميل التجارب المتعثرة، حتى يستقيم عوده، فيصبح فنا له قواعده وأصوله وشعراؤه.

خامسا:أشهر شعراء المعارضة:

لعل فهمنا للمعارضة الشعرية سيتضح أكثر لو قدمنا نماذج شعرية للأندلسيين الذين تركوا بصماتهم الخاصة في هذا المضمار، والتي انتقلوا فيها من طور التّقليد والمحاكاة إلى طور البراعة والابتكار .

ومن أشهر الشعراء المعارضين الأعمى التطيلي[16] يعارض زهير بن أبي سلمى فيقول:

---

12 - عمر فروخ: تاريخ الأدب العربي، ج4، ص، 78.

13 - *Gérard Genette,* Palimpsestes. La littérature au second degré, *p. 13*

14 - إحسان عباس: تاريخ الأدب الأندلسي،ص، 125

15 - يونس طرحي سلوم البجاري :المعارضات في الشعر الأندلسي، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان، 2008، ص،48.

16 - التطيْلي الأعمى أو أحمد بن عبد الله بن هريرة القيسي الأعمى التطيلي(1126 – 1092) له كنيتان هما "أبو جعفر" و"أبو العباس، وهو شاعر ووشاح أندلسي عاش في عصر المرابطين، عُرف بالأعمى وبالأَعَيمى لعاهته، وبالتُّطِيْليّ نسبة إلى مسقط رأسه تُطِيلة، كما لقبه بعض مؤرخي الأدب بمعري الأندلس.

أرجم فيك الظن كـــــــــل مرجم وحاشاك لم أرتب ولم أنتدم

وعندي من الود الـــــــذي انتحى له سلو ولا أودي به لوم لوم

ذكرتك ذكر النازح الدار داره بحيث هواه من سحيل ومبرم

وأنت بنيت بالبأس والندى وقد هدموه في لبوس ومطعم[17]

وهذه القصيدة قد عارض بها أبياتا من معلقة زهير بن أبي سلمى،والتي قال فيها:

آمن أم أوفى دمنة لم تكـــــــــــــــــــــــلم بحومانه الد ا رج، فالمتلـــــــــــــــــثم

ودار بها بالرقمتين، كـــــــــــــــــــــــــأنها مراجع وشم، في نواشم معصم

بها العين، والأرآم، يمشين خلفة وأطلاؤها ينهضن، من كل محثم

وقفت بها، من بعد عشرين حجة فلأيا، عرفت الدار بعد التوهم

أثافي سعفا في معرس مـــــــــــــــــــــرجل ونويا، كنجدم الحوض لم يتلثم[18]

---

17 - الاعمى التطيلي ،ديوان الأعمى التطيلي(أبو العباس أحمد بن عبد الله بن أبي هريرة القسي)تح .إحسان عباس، دار الثقافة بيروت، د-ط، 5924 ، ص، 544 .

والملاحظ أن القصيدتين تشتركان في بحر الطويل، وقافية الميم المكسورة، ولهما غرض واحد يصب في المديح، مع بعض الفخر والاستعطاف[19]، بالاضافة إلى ما يمكن ملاحظته في تشابك النصين على طريقة تماهي النصوص، وامتصاص بعضها البعض، حتى ليخيل للقارئ لأول وهلة صعوبة فك النصين لما فيهما من تناص وتعالق في المتن والموضوع.

18 - زهير بن ابي سلمى، ديوان زهير بن أبي سلمى(بن ربيعة بن زيان المزني)تح أحمد وملماس، دار المعرفة، ط2، بيروت، لبنان، 2005، ص، 65.64.

1919 - ينظر: المعارضات في الشعر الأندلسي، إيمان السيد أحمد الجمل، ص، 233.